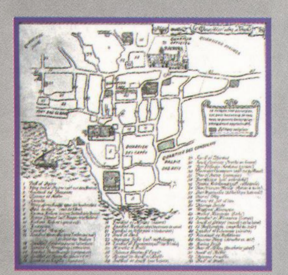
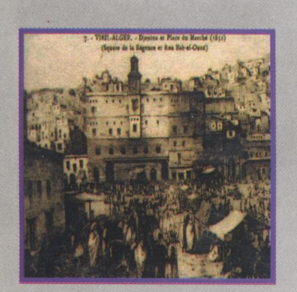
عصور الجديدة

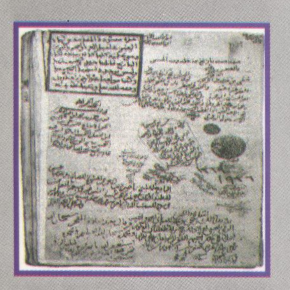
مجلة فصلية محكمة يصدرها مختبر البحث التاريخي - تاريخ الجزائر -
جامعة وهران - الجزائر -

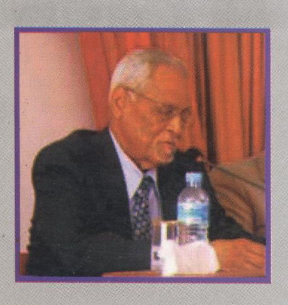
العدد: 3 - 4 2012/2011





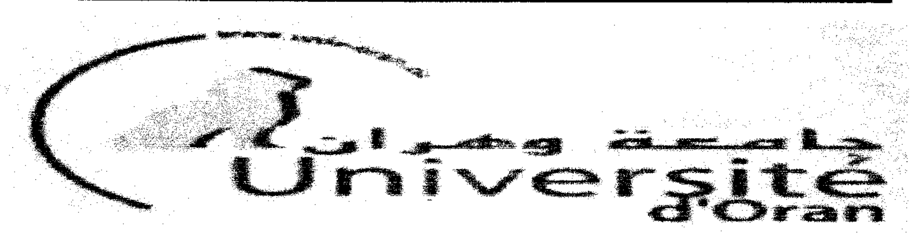






مما جاء في هذا العدد:

ISSN: 2170 - 1636



عصور "الجديدة"

مجلة فصلية محكمة تعنى بتاريخ الجزائر والتراث التاريخي المخطوط يصدرها مختبر البحث التاريخي *"تاريخ الجزائر"- جامعة وهران*

عدد 3-4- عدد خاص بالندوة العلمية الوطنية حول التاريخ والمؤرخين الجزائريين
خريف- 1432هـ- 2011م/شتاء 1433هـ-2012م

ردمد ISSN 2170-1636
الإيداع القانوني: 2011- Depot Légal

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ صدق الله العظيم

[آل عمران: الآية 140].

شروط النشر بالمجلة

ترحب المجلة بمشاركة الباحثين المتخصصين وتقبل للنشر الدراسات والبحوث المستوفية للشروط الأكاديمية التالية:

1- أن يكون البحث مبتكرا أصيلا ولم يسبق نشره، وأن لا يكون فصلا من مذكرة ماجستير أو أطروحة دكتوراه.

2- أن يتبع الباحث الأصول العلمية المتعارف عليها، وبخاصة فيما يتعلق بتوثيق المصادر، مع إلحاق كشف المصادر والمراجع بالهوامش في آخر البحث، وضرورة كتابتها على الشكل التالي: المؤلف- عنوان الكتاب- المحقق- الطبعة- دار النشر- مكان النشر- تاريخ النشر- الجزء والصفحة.

3- تقدم الأعمال في قرص مضغوط ونسخة مطبوعة على وجه واحد، أو ترسل إلى البريد الإلكتروني للمجلة.

4- يتراوح عدد صفحات البحث ما بين 10 إلى 20 صفحة مكتوبة بخط Traditional Arabic مقاس 14 وتباعد 1. وتكتب الهوامش بطريقة عادية في نهاية البحث، وبمقاس 10 وتباعد فردي.

5- تخضع كل البحوث المقدمة للنشر في المجلة للتحكيم العلمي، ولا تقبل المقالات التي لا تحترم الشروط المذكورة سابقا.

6- لا ترد الدراسات والبحوث إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.

7- الدراسات والبحوث المنشورة في المجلة لا تعبر إلا عن رأي أصحابها.

عنوان المراسلة: ترسل البحوث والدراسات باسم:

أ.د.عبد القادر بوباية- مختبر تاريخ الجزائر- قسم التاريخ وعلم الآثار

ص ب 1541 المنور-كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية

جامعة وهران- الجمهورية الجزائرية

هاتف/فاكس: 0021341348531/0021341427139

البريد الإلكتروني: oussourrevue@gmail.com

الموقع الإلكتروني: Dahou55.maktoobblog.com

فهرس الموضوعات

كلمة العدد

نواصل المسيرة العلمية لمجلة عصور الجديدة مع هذا العدد المزدوج الذي خصصناه لنشر المداخلات التي أسهم بها المشاركون في الندوة العلمية الثانية التي نظمها مختبر تاريخ الجزائر لموضوع "التاريخ والمؤرخين الجزائريين عبر العصور".

مما لا شك فيه أن المؤرخين الجزائريين كان له إسهام واضح في التدوين التاريخي عامة، وتدوين تاريخ الجزائر عبر العصور خاصة، وكان لهم وجود ضمن كوكبة المؤرخين الذين تخصصوا في هذا النوع من الكتابة، وقد ازداد عددهم أكثر بعد حصول الجزائر على استقلالها، وبخاصة بعد انتشار أقسام التاريخ في العديد من جامعات الجزائر.

وقد سمح ذلك ببروز نخبة سعت جاهدة إلى المساهمة وبدور فعال في كتابة التاريخ وتحقيق مصادره المخطوطة.

ومن خلال المداخلات التي قدّمها باحثون من جامعات تلمسان وسيدي بلعباس وتيارت ومعسكر ووهران والشلف والجزائر والبويرة والمسيلة والوادي تبين بجلاء وجود نواة مدرسة تاريخية جزائرية تسعى جاهدة إلى كتابة التاريخ الوطني من جهة، وإلى الإسهام في التدوين التاريخي المغاربي وتحقيق التراث المخطوط الذي تزخر به الكثير من الخزائن المنتشرة عبر التراب الوطني وكذا الخزائن والمكتبات المتواجدة خارج الجزائر.

وقد اختتمت الندوة العلمية بتكريم أحد الوجوه البارزة في الكتابة التاريخية وتحقيق التراث المخطوط بالجزائر، ويتعلق الأمر بالأستاذ الدكتور عبد الحميد حاجيات الذي يعتبر قدوة لكثير من المؤرخين الشباب بالنظر إلى الدور الفعال الذي أسهم به في كتابة التاريخ وتحقيق التراث المخطوط، وقد سعينا من خلال هذا التكريم الذي يصادف احتفالية تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية– والأستاذ من أبناء هذه المدينة– إلى ترسيخ سنة حميدة تتمثل في تكريم المؤرخين الجزائريين في حياتهم حتى نشعرهم بالقيمة الكبيرة التي يحتلونها في الحركة العلمية عامة، وفي التدوين التاريخي وتحقيق التراث المخطوط خاصة.

مدير المختبر ورئيس التحرير: أ.د عبد القادر بوباية

التاريخ والمؤرخون في وارجلان الاباضية على عهد الموحدين: أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلاني نموذجا

أ.حميد زيدور*

—

عرفت حواضر المغرب الأوسط الكثير من المؤرخين الذين ألفوا حول مدنهم، ومناقب مشايخهم، ورؤساء مذاهبهم وفرقهم، ناهيك عن رحلاتهم، ومن هذا المنطلق، ارتأينا الكتابة حول مؤرخي وارجلان الاباضية، الذين قاموا بعملية التأريخ للمذهب الاباضي، بالمغرب منذ دخوله، والتعريف برجالاته، بذكر مناقب مشايخه وعلمائه، وهو الأمر، الذي يجعلنا نكتشف عملية سير الكثير من الميادين، السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية كطرق التعليم بوارجلان الاباضية، وطرق تسيير المدينة، ناهيك عن الكشف عن الظاهرات الاجتماعية بها، كالعلاقات بين الفرق والمذاهب، وبين القبائل والعشائر، ثم عن العلاقات الاقتصادية داخل المدينة، وطرق التجارة التي تربطها بغيرها من المدن، وغيرها من الظاهرات، التي تتيح للباحث، فهم حواضر المغرب الاسلامي، في العصور الوسطى.

ويعود اختيارنا لوارجلان، على عهد الموحدين، وبالضبط في الفترة ما بين 516هـ/1121م إلى غاية 570هـ/1174م، إلى أسباب عديدة، منها أن وارجلان قد عرفت في هذه الفترة، حركة علمية كبيرة، أفرزت الكثير من العلماء، الذين ألفوا في مختلف المجالات، الدينية والتاريخية والعلمية والفلسفية، وغيرها من العلوم والفنون، وهي تعتبر الفترة الذهبية بالنسبة للاباضية.

من بين أسباب الاختيار كذلك، انتماء وارجلان من الناحية السياسية إلى الموحدين، ولو بشكل صوري- لأن علمائها، باركوا هذه الدولة ووالوها، بل إن البعض منهم كان من رجالاتها، متولين مناصب عالية كمستشارين ووزراء، ودراسة وارجلان ضمن كيان سياسي واحد، يساعد الباحث على فهم المعطيات التاريخية وتفسير أسبابها، وخلفياتها، وبخاصة أن المذهب الاباضي في هذه الفترة، لم يعرف أدنى اضطهاد، من طرف الموحدين، وفي ظل الأمن والاستقرار، الذي عاشه الاباضيون، يمكننا فهم التطور العلمي والفكري، لعلماء الاباضية

---

*- أستاذ مساعد ب في تاريخ المغرب الإسلامي- قسم التاريخ- جامعة الوادي.

بوارجلان، بعد حقبة طويلة من الاضطهاد الذي عرفته فيما قبل وهذا منذ، سقوط تيهرت بأيدي الفاطميين، سنة 296هـ/908م.

إضافة إلى هذا، فإن هذه الفترة، قد عرفت وجود العديد من العلماء الأفذاذ، الذين كتبوا في التاريخ، والتراجم والسير[1]، ومناقب رجالات المذهب الاباضي بحواضر المغرب الأوسط، ومن هذه المنطلقات، كان اختيارنا لأبي يعقوب يوسف بن ابراهيم الوارجلاني، كأهم مرجع من مراجع الاباضية عبر العصور، ولغاية اليوم، وهذا لتأثيره الفكري والديني، على أتباع المذهب، ثم كمؤرخ بارز، بحكم تآليفه وكتاباته التاريخية.

ثم إن اختيارنا لأبي يعقوب يوسف بن ابراهيم الوارجلاني، سيمنحنا فرصة الكشف عن مؤرخ من مؤرخي المغرب الأوسط، ومن الذين أبرزوا في مؤلفاتهم، تاريخ مناطقه وحواضره، التي تتواجد بها الاباضية، وبشكل أكبر الجنوبية، كوارجلان ووادي أريغ ووادي سوف ووادي ميزاب، أين احتفظ الاباضيون بتواجدهم وبمذهبهم.

وبالرغم من أن كتب، أبو يعقوب يوسف الوارجلاني التاريخية، هي في عداد المفقود، –لأنها موجودة بأوربا– فإن الكثير من المعطيات والمعلومات التاريخية موجودة في ثنايا كتبه الكلامية والفلسفية، مثل الدليل والبرهان، وكذلك في دواوينه الشعرية، مثل القصيدة الحجازية التي دون فيها رحلته إلى الحج، ولعل ذكر سيرة هذا العالم والمؤرخ كنموذج، سيكشف الغطاء عن حياة العديد من المؤرخين الاباضيين، ونمط استعمالهم للتاريخ، وتحت أية أهداف كان استعمالهم لهذا الفن؟، وبخاصة من طرف رجال ملتزمين دينيا، يعيشون أفكارهم بعمق ويعملون من أجل نشرها، بكل الوسائل الممكنة، مع المحافظة على مذاهبهم، وهذا بدون أن ننسى، شرطا أساسيا، وهو طبيعة الفكر الاباضي، الديني منه والسياسي، الذي كان أساس ومرجع كل الكتابات الاباضية، الكلامية والفلسفية والتاريخية.

لم تفتقر وارجلان قبل سنة 516هـ/1122م، أي قبل وجود الموحدين، من مؤرخين، بل كان عددهم كبير جدا[2]، كالمؤرخ المعروف أبي زكريا يحي بن أبي بكر الوارجلاني (ت474هـ–1078م)، الذي عرف بكتابه، السيرة وأخبار الأئمة، والذي يعتبر من أقدم كتب التاريخ الاباضية، بل وهناك الكثير ممن سبقه وبزمن طويل، كأبي محمد عبد الله بن محمد اللواتي، وهو عبد الله بن محمد بن ناصر بن ميال بن يوسف الذي كان وزيرا للإمام افلح الرستمي[3] وغيرهم. ويعود سبب وجود هذا الكم من المؤرخين الاباضين، ومنذ هذه الفترة إلى ما عرف

عن شغف الاباضية، وحبهم للسير وبالأخص حبهم لأخبار مشايخهم، وذكر مناقبهم وأخلاقهم[4]، وهذا بدون أن ننسى حب طلب العلم-بصفة عامة-، الذي توارثه الاباضيون منذ عهد دولتهم الرستمية، التي ساوت في طلبه بين المرأة والرجل[5].

الإباضية على عهد الموحدين: كان الإباضية من بين من بارك دولة الموحدين، وربما أن تاريخهم مع الدول المتعاقبة على بلاد المغرب، وبالأخص الدولة الفاطمية، ثم الصنهاجية التي حاربت المذهب الاباضي وأتباعه، إلى درجة قتلهم وتشريدهم، كما حدث بدرجين[6]، سنة 440هـ/[7]1048م، كان السبب في هذه المباركة، وتبدأ علاقة الإباضية بالموحدين، منذ مجيء ممثلا عن هؤلاء إلى وارجلان، تذكره المصادر الاباضية، باسم العتروسي[8]، داعيا إلى موالاة هذه الدولة، الأمر الذي جعل من أهالي وأعيان المدينة، يفكرون في أمر هذه الدعوة ، وفيما سيؤول إليه أمرهم، وأمر مدينتهم ومذهبهم.

قام أهالي وارجلان بمشاورة أبي يعقوب يوسف بن ابراهيم الوارجلاني[9]، الذي دعاهم إلى الدخول في هذه الدولة-ولو صوريا-، إذ أن وارجلان، لم تكن في يوم من الأيام، بعد سقوط دولة الرستميين- وهي التي عرفت المذهب الاباضي، قبل تأسيس الدولة الرستمية[10]- منتمية إلى أية دولة، وهذا لانتماء أهلها للمذهب الاباضي، ثم لبعدها عن مركز الدول، التي تعاقبت على بلاد المغرب.

مع العلم، أن الاباضية في هذه الفترة، أي فترة ما بعد سقوط تيهرت، قد عاشت مرحلة الكتمان، وهي مرحلة تكون فيها علاقة الاباضية مع مخاليفهم غير ثابتة أو مستقرة، أي بين حالتي تقارب أو تباعد، وهذا على حسب الظروف السياسية، وطبيعة الدولة المتعامل معها، وفي حالة وجود بعض التوتر بين الطرفين، فإن الاباضية كانت تركن نحو العزلة والانطواء، وهو الأمر الذي أدى بهم للالتجاء إلى مواطن ومواقع بعيدة ومنعزلة،[11]كمناطق جنوب المغرب الأوسط.

تذكر المصادر الاباضية، أن أبا يعقوب يوسف، طمأن أهالي وارجلان، ووعدهم بالخير والازدهار، تحت ظل هذه الدولة[12]، وهو الأمر الذي يمكننا فهمه، بأنه دعوة منه، لموالاتها، ولعل السبب يكمن في جانبين اثنين: أولا، في تلك المسائل العقدية، والفكرية، التي تجمع بين فكر الموحدين وفكر الاباضية، وثانيا إلى طبيعة مرحلة الكتمان، وعلاقة الاباضية خلالها بمخالفيهم، وقبل ذكر العلاقة التي تجمع بين الاباضية والموحدين، لابأس أن نفتح قوس، حول

بداية العلاقة بين الطرفين، التي لم تعتني بها المصادر الاباضية، التي جاءتنا بمعطيات جد واهية، لم نتمكن خلالها، من تبيان سنة هذه البداية، وهذا بالرغم من خدمة الكثير من أعلام وعلماء الاباضية، كوزراء ومستشارين، في بلاط الموحدين، مثل أبي يحي زكرياء اليراسيني،[13] وغيرهم ممن ساهموا في ارساء وتمتين العلاقة بين الجانبين.[14]

ومن خلال هذه العلاقة، نستطيع أن نستشف المكانة الاقتصادية، والتجارية والعلمية لوارجلان، فمن الناحية العلمية، نجد أن أكبر علماء وأعلام الإباضية، قد تكونوا في هذه الفترة، مع اهتمامهم الشديد بالسفر في طلب العلم، ولعل في استتباب الأمن، وبالأخص فيما بعد منتصف القرن السادس، أي ما بعد سنة 550هـ/1155م[15]، وسيطرة الموحدين على بلاد افريقية، وتحرير المهدية من النصارى، قد سمح للاباضية بهذا السفر، وطلب العلم بمدن إفريقية والأندلس.

أما من الناحية الاقتصادية، فيمكننا اعتبار تأسيس بجاية من طرف الحماديين، ثم استلاء الموحدين عليها سنة 547هـ/1152م، قد حول وارجلان إلى مدينة أكثر أهمية، باعتبارها أضحت معبر طرق، وسوق تجارية كبيرة، إذ أن طرق المواصلات بين الشمال والصحراء، قد تحولت إلى الطريق الشرقي، لبلاد المغرب الأوسط، عوض المغرب الأقصى، رابطة تجارة ما وراء الصحراء الكبرى، بميناء بجاية، مرورا بمدينة وارجلان[16]، وهذا بدون أن ننسى الدور، التجاري والديني، الذي قام به إباضية وارجلان في إفريقيا السوداء.

أما من الناحية الاجتماعية، فقد بقيت وارجلان تسير من طرف مجلس العزابة، الذي يعتبر أعلى سلطة في المدينة، إذ كان هذا المجلس يمثل الاباضية بعيدا عن أي تدخل خارجي، وقد كان رجاله، "بمنزلة السلطان العادل"[17]، لا يختلف أهل وارجلان عما يقولونه، ويأمرون به، مع العلم، أن نظام العزابة لا يكون إلا في مرحلة الكتمان، وبالرغم من هذا، فإن العديد من الاسئلة تبقى عالقة، وبخاصة حول هذه الفترة، ومن بين هذه الأسئلة: هل مدينة وارجلان، كان تسير بوجود نواب، وبعض أشياخ الموحدين، ممن وضعهم عبد المؤمن بن علي، على رأس حواضر المغرب الأوسط، وهذا بعد غزوه له، في سنة 549هـ/1154م[18]؟، أم أنها بقيت تسير، بدون تأثير دولة الموحدين، وهذا بالرغم، من موالاة الإباضية لها؟.

للإجابة عن هذه الأسئلة، لابد من الرجوع، إلى الفكر الديني والسياسي المعتمد عليه عند الإباضين، وبخاصة في مرحلة الكتمان، التي تتميز مقارنة بالمراحل الأخرى، بالعديد من

الخصائص، حيث يعتمد فيها الإباضية، على السلبية المطلقة، إذ لا يقومون بأي حراك سياسي أو عسكري، بل يكتمون أمرهم وينعزلون، وسط تنظيم خاص، يمثل عجز الاباضية عن تأسيس دولة جديدة[19].

ومن ناحية أخرى، فإن الاباضية في هذه المرحلة، يوجهون كل جهودهم، نحو جانبين اثنين، أولا: الجانب الديني والاجتماعي والأسري والتعليمي، وكذلك الاقتصادي، وثانيا: العلاقات بين المجتمع الاباضي وغيره من الطوائف والمذاهب، كما أن الحفاظ على الدين، هو أكبر مبدأ يعتمد عليه الاباضية، في هذه الفترة[20]، ومن هنا، وما يمكننا التأكيد عليه، أن أبا يعقوب الوارجلاني، قد طبق تعاليم الاباضية، التي استحدثوها بعد سقوط دولتهم الرستمية، ووظفها تماما مع دولة الموحدين الجديدة، ناهيك عن نقط الاشتراك الدينية والكلامة والعقدية، التي تجمع بين فكر الاباضية وفكر المهدي بن تومرت، والموحدين بصفة عامة.

أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم الوارجلاني: يعتبر أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم الوارجلاني، في فترة الموحدين، أحد أكبر علماء الغرب الاسلامي، سواء بالمغرب أو الأندلس، وقد كان بالنسبة للإباضية، علما من أعلامهم ومرجعا من مراجعهم، ومن الممكن القول، أن يوسف بن ابراهيم، كان يعتبر أجل عالم عند الاباضية، كيف لا، وهو من الذين عرفت أوروبا، مؤلفاتهم العلمية والكلامية، حتى أنهم اعتبروه- أي الأوربيون- أعظم عالم رياضي بشمال افريقيا.

ومما يمكننا قوله، أن أبا يعقوب الوارجلاني، قد ترعرع في فترة، عرف فيها المغرب الاسلامي، حركة علمية قوية، والتي تمثلت أكثر، في تطور العلوم العقلية، كالفلسفة والمنطق وعلم الكلام، ناهيك عن الطب والحساب، وهذا بتشجيع دولة الموحدين، في طلب هذه العلوم والمعارف، لتتأثر بذلك حواضر الغرب الاسلامي ككل، سواء بالمغرب أو الأندلس، وستكون الحواضر الاباضية، بجنوب المغرب الأوسط، مثل نظيراتها، متأثرة بهذا المناخ العلمي والفكري، في ظل دولة الموحدين.

وقد كان أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم، أحد أكبر المتكلمة، والجغرافيين، والمؤرخين، والفقهاء الأباضيين، والفلكيين، وحتى الرحالة، في هذه الفترة، ولابأس حتى نختصر شخصية الوارجلاني العلمية، أن نذكر نص الدرجيني، الذي صرح قائلا: "وهذا الشيخ له يد في علم القرآن، وفي علم اللسان، وفي الحديث والأخبار، وفي رواية السنن والآثار، وعلم النظر والكلام، وعلم الشريعة، عباداتها والاحكام وعلم فرائض المواريث، ومعرفة رجال الأحاديث،

ولم يخل من اطلاع على علوم الأقدمين، بل حصل مع ملازمة السنة، قطعة من علم الحكماء المنجمين.."[21]، وبالتالي فإنه يمكننا القول أن الوارجلاني، كان من الموسوعيين، مثل أغلبية علماء عصره.

تنسب المصادر الإباضية، أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم، إلى سدراتة أو وارجلان، فتذكره بالوارجلاني أو السدراتي، والمصادر تتفق في ذلك، لأنه ولد بسدراتة، القريبة جدا من وارجلان[22]، التي ترعرع فيها، إلا أن ما نراه يحمل الكثير من الجدل، هي سنة ولادته التي تتداولها المراجع، وهي سنة، 500هـ/1106م[23]، وهو الأمر الذي نختلف فيه معها، ويعود اختلافنا، لعوامل عديدة، كانت نتيجة تحليلنا، لنصوص المصادر الاباضية، التي مست شخصية أبو يعقوب الوارجلاني، ومقارنتها بالأحداث، التي وقعت ببلاد المغرب الاسلامي، وبالمغرب الأوسط بالخصوص، وكان اختيارنا لنص الدرجيني، لأنه أقدم نص قدم لهذه الشخصية، والذي عليه اعتمدت، باقي المصادر.

يقول الدرجيني: "وحدثنا أهل وارجلان، أن أول داع، وصل وارجلان، من دعاة الدعوة المهدية، العتروسي، وصلها في خيل، فلما قدم إليهم، دعاهم إلى إجابة الدعوة"، ويضيف بعد ذلك: "فقال عقلاؤهم: ما ضرنا، أن نصل إلى الفقيه أبي يعقوب اعلمه بما وقع في نفوسنا، ونأخذ ما عنده"[24]، وأول ما يطرح كسؤال هو، ما المقصود بالداع؟، هل هو مبعوث المهدي بن تومرت؟، أم أنه قدم في فترة عبد المؤمن بن علي525-558هـ؟، لأن بمعرفة فترة هذا الداع، يمكننا النفي أو التأكيد على سنة ولادة أبي يعقوب الوارجلاني في 500هـ/1106م.

في حالة ما إذا كان الداع، قد وصل في فترة المهدي بن تومرت، فإن سن الوارجلاني هوبين 15و25 سنة، لأن المهدي بن تومرت، بدأ دعوته سنة 515هـ1121م، وتوفي سنة 525هـ/1130م، وهذا إعتمادا على سنة 500هـ/1106م كسنة ولادته، وفي هذه الحالة، هل كان الوارجلاني يملك، في هذه السن، المكانة الروحية والدينية، في مدينة كوارجلان، العامرة بالمشايخ؟، والأكثر من ذلك، في قضية مصيرية، وإذا ما علمنا أن العزابة، هي من كانت تقود المجتمع الاباضي، فهل يعني هذا، أن الوارجلاني كان أحد أعضائها، وهو في هذه السن؟.

ثم إن شيخ أبي يعقوب الوارجلاني، وهو أبو سليمان أيوب بن اسماعيل، توفي سنة524هـ/1130م، ولقد رثاه تلميذه أبو يعقوب، قي قصيدته البائية، مما دل على عمق الصلة بينهما، وبالتالي ألم يكن من الجدير، أن يستشار ويستفتي بدلا عن تلميذه، وهذا حتى، وإن

كان طريح الفراش، جراء الشلل الذي أصابه، أم أن مكانة الرجل، قد أخذها أبو يعقوب الوارجلاني؟ بالرغم من أن المجتمعات الاسلامية، من الناحية الأخلاقية، والأدبية، لم يكن من المستساغ، أن يأخذ التلميذ مكانة شيخه، وهو على قيد الحياة، مما يعني أكثر، أنه ولغاية سنة 524هـ/1130م، لم يكن من المفروض، أن يرد أبو يعقوب يوسف، وهو في هذه السن، على أهالي وارجلان، وشيوخه، مثل أيوب بن اسماعيل، وأبو عمار عبد الكافي التناوتي، كانوا لا يزالون أحياء.

نجد أن الدرجيني يضيف، في نصه قائلا: "ودعاهم إلى إجابة الدعوة"، وهذا يعني أن الدعوة الموحدية كانت جديدة، ولم يسبق للإباضيين وأن سمعوا بها، بالرغم من أن الاباضيون كانوا منتشرين في ربوع المغرب الاسلامي، إضافة إلى هذا وكما هو معلوم، فإن الإباضية، كانوا تجارا، ووصلوا بتجارتهم، إلى أعماق إفريقيا السوداء، فكيف بحواضر الشمال، ثم إن مدينة وارجلان في حد ذاتها، كانت معبر طرق، وسوقا تجاريا كبيرا، يلتقي فيه تجار الشمال بالجنوب، وبالتالي فكل الأخبار، كانت تصل إلى أهالي وارجلان، ومن الممكن القول، أنهم كانوا ممن تصل إليهم الأخبار، قبل غيرهم، وهذا مايجعلنا نحتمل، أن الدعوة وصلت إلى أهالي وارجلان مبكرا.

بل وحتى نوضح أكثر، على أن وصول دعوة الموحدين، إلى وارجلان كانت في وقت مبكر، ومن طرف المهدي بن تومرت، نستدل بما يضيفه الدرجيني قائلا: "فتشاوروا فيما يأتون وما يدرون، فأجمع رأي أكثرهم، على قتله–أي العتروسي– وأصحابه، حتى لا يظهر لهم ذكر"، من هذه الفقرة نتساءل، هل كان باستطاعة أهالي وارجلان، أن يملكوا الجرأة ويفكروا، في قتل العتروسي، لو كان ممثلا عن عبد المؤمن بن علي، وأحد دعاة دولته؟ وعبد المؤمن بن علي، قد قضى على دولة المرابطين، ووصلت أخبار فتوحاته، في كل مكان من المغرب الاسلامي؟، بل إن أهالي وارجلان في قولهم لأبي يعقوب: "إن هذه خيل، تدعوا إلى سلطان قد ظهر"، لا تدع أي مجال للشك، من هذا السلطان، لم يكن له ذكر فيما قبل، ومن المحتمل جدا، أنه المهدي بن تومرت.

من خلال تحليلنا لنص الدرجيني، يمكننا احتمال ولادته قبل سنة 500هـ/1106م، ولعل ذكر أهالي وارجلان لأبي يعقوب، "بالفقيه"، ثم مشاورته في قضية سياسية، تمس بمستقبل

الاباضية ومذهبهم بالمدينة، تدل على أن سنه كان أكبر من 25 سنة، ومن الممكن، أنه كان ضمن حلقة العزابة.

ومن خلال النص دائما، يمكننا استخراج بعض المعطيات التاريخية، التي تمس شخصية أبو يعقوب يوسف الوارجلاني، والمجتمع الاباضي البربري بوارجلان، ومنها ظاهرة التنجيم، إذ يذكر الدرجيني أن أبا يعقوب، تنبأ لأهالي وارجلان، بأن الذي يخرب مدينتهم، هو رجل يخرج من شرق سجلماسة..، لنجد أن الوارجلاني لم يخرج عن إطار بيئته، البربرية الإباضية، التي كانت تتميز به مدينة وارجلان، ومنها الإيمان والاعتقاد بالتنجيم، حتى أن الدرجيني نفسه، في نصه هذا، يؤكد على قوة الوارجلاني في هذا الميدان، لأنه عاش ما تنبأ له أبو يعقوب في سنة 627/626هـ، وهو أن الذي يخرب وارجلان هو"هو رجل يخرج من شرق سجلماسة، ويموت في البحر.."، يقصد به يحي بن اسحق الميورقي.

وفي هذا الصدد بالضبط، يمكننا فهم المجتمع الاباضي بوارجلان، الذي كان لا يزال يحمل، نمط المجتمع البدوي، الذي يبحث عن الكرامات والمعجزات والعادات الخارقة، عند المشايخ، أكثر من بحثه عما في صدورهم وعقولهم وما ألفوه من كتب، وفي هذا يصرح الدرجيني عن أبيه قائلا: " ...رحم الله شيخنا أبا يعقوب، عمد إلى العلوم النافعة، كعلم القرآن والفقه وعلم اللسان، فحملها ابنه أبا اسحق، ووجد عندنا أفهاما، قابلة لعلم لا ينفع، يعني علم النجامة فعلمناها..."، ومن هذا المنطلق، ما يمكننا طرحه كتساؤل، هو لماذا أجاب الوارجلاني، عن أهالي مدينته، بهذه الطريقة؟، لأن رده بالنسبة لنا، يعود إلى طبيعة مبادئ مرحلة الكتمان التي كانت تعيشها الاباضية، وعلاقتهم مع الدول التي يحيون معها، أو تحت ظلها، وأولها استعمال الحياد، والاعتماد على البعد عن كل ما هو سياسي.

ولعل ما قام به الوارجلاني، من استعمال التنجيم، الذي اشتهر به، والذي نعتقد أنه كان سائدا عند مشايخ وعلماء الاباضية، كان من أجل إرضاء وطمأنة أهالي وارجلان، ومن أجل تفادي أي عمل شائن قد يقومون به، كما أنه يدل على معرفة الرجل بالمجتمع الوارجلاني، وإن كنا في الأخير نعتقد، أن الوارجلاني كان ابن بيئته، إذ لم يستطع أن يتخلص من تأثيرها في شخصيته، مما يجعل من الباحث، يعيد تجديد البحث، حول جدلية العلاقة بين العالم والمجتمع الذي يعيش في وسطه.

رحلته إلى الأندلس: لم يتوجه أبو يعقوب يوسف إلى تونس، لطلب العلم، مثل أبي عمار عبد الكافي[25]، وغيره من علماء الاباضية، ولكن كان توجهه في ذلك إلى الأندلس، وبالرغم من أن المصادر الاباضية وكعادتها، لم تذكر سنوات رحلات مشايخها، إلا أنه يمكننا إفتراض ذلك، وهي أنها كانت بعد وفاة شيخه، أبو سليمان أيوب بن اسماعيل سنة 524هـ/1129م، ولعل ما عرف عن الوارجلاني، من شهرته بلقب جاحظ الأندلس، ومعرفة كتبه وآثاره من طرف الأوربيين، وبالأخص في مجال الرياضيات، تجعلنا نفرض تنقله إلى الاندلس في سن عالية، وليست كما تذكر بعض المراجع من أنها كانت في سن مبكرة.

كما أن الرحلة كانت بمعية إباضية الأندلس، الذين كانوا يتواصلون مع إباضية المغرب الاسلامي، ومنهم إباضية وارجلان، التي كانت حاضرة من حواضر هذا المذهب، وقد يكون أبو يعقوب الوارجلاني قد توجه إلى مدينة يابسة الأندلسية التي كانت عامرة بالإباضية إلى غاية القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، قبل أن يتوجه إلى قرطبة، وبالنسبة لهذا التوجه، فمن المحتمل أن يكون لعلاقة أبي يعقوب يوسف، وشغفه بالعلوم العقلية والفلسفية والفلكية، وحبه للغة والشعر، دورا مهما، إضافة إلى حبه للجغرافية، وشغفه في اكتشاف المناطق والمدن[26]، مع العلم أن الاباضية شجعت العلوم الشرعية على حساب العلوم الأخرى[27] عكس ما عرفته الأندلس من رواج كبير لجميع العلوم، والذي يجعلنا نقر بهذا الاحتمال هي مؤلفات أبو يعقوب نفسه، التي اختلفت من عقلية وكلامية ونقلية وفلكية وجغرافية ورياضيات[28]، وغيرها من المعارف والعلوم، وبهذا بدون أن ننسى، أن الرحلة في طلب العلم، في المجتمعات الاسلامية ككل، كانت من أجل إتمام العلوم والمعارف، الغير متوفرة في الوطن الأم.

مما عرف عن أبي يعقوب بالأندلس، هو شهرته بلقب جاحظ المغرب لمعرفته الموسوعية وحبه للعلم، حتى أن بعض المراجع ترجح تعلمه الاسبانية واللاتينية[29]، بل أن حسن حسني عبد الوهاب يذكر أن أبا يعقوب يوسف بن ابراهيم الوارجلاني يعتبر عند علماء أوربا أكبر عالم رياضيات في شمال إفريقيا[30]، وبالرغم من أن المصادر الاباضية صرحت بانه قد مكث بالأندلس، مدة خمس سنوات[31]، إلا أنها لم تعطي أي تفاصيل عن حياته هناك، لا حول شيوخه وأماكن دراسته وتنقلاته، ولا حول آثاره وما ألفه من كتب، إن هو ألفها هناك؟ ما عدى أن وجوده كان في مدينة قرطبة[32]، وحتى عن عودته من الأندلس، ليس هناك تاريخا محددا، قد

يساعد الباحث في الكشف عن سن هذا العالم، وبخاصة عندما نعلم، أنه شارك في الكثير من الأحداث المهمة، التي واكبت وجوده بوارجلان، مع توليه منصب القضاء بها[33].

وبهذا الصدد، نفتح قوس حول الكتابات الاباضية، التي نجدها لا تهتم بالتأريخ، أو ذكر التواريخ، بل تذكر الأحداث والرحلات ضمن مجال زمني مفتوح، كالدرجيني، الذي درس سير العلماء، ضمن طبقات معينة، جاعلا كل طبقة تمثل خمسين سنة كاملة، دون تحديد تاريخ معين[34]، وهذا في واقعه لا يحمل الدقة التي يحتاجها الباحث، وبالأخص عند مقارنة الأحداث المحلية، مع تلك التي وقعت في أماكن أخرى، من المغرب الأوسط، أو المغرب الإسلامي ككل.

رحلته إلى بلاد السودان:

بعد عودة أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم الى وارجلان، بقي محافظا على حبه للرحيل والسفر والمعرفة، وهذا ما جعله يسافر إلى بلاد السودان، إذ كاد أن يبلغ خط الاستواء، ومن الممكن أن يكون من الأوائل، الذين وصلوا إلى هذا الحد من افريقيا[35]، أما سبب سفر يوسف بن ابراهيم إلى بلاد السودان، فهو ربما يعود إلى إيصال الاسلام والعلم الشرعي إلى هذه البلدان، إذ أن الإباضيين، قد أوصلوا الإسلام إلى بلاد السودان إلى غاية القرن الخامس الهجري[36]، كما أن الرغبة في التجارة، من المكن أن تكون كذلك هدفا من أهداف هذا السفر.

ولكن ما نراه مهما في هذه الرحلة، هو خط الاستواء، الذي ذكره يوسف بن ابراهيم، وبالتالي، فإن الجغرافية كانت أحد أهم الميادين، التي شغف بها، وربما تكون رحلته إلى الأندلس عوض عن تونس، تدخل ضمن هذا الإطار، وهو حب الجغرافية واكتشاف المدن والتعرف على الشعوب، ناهيك عن دراسته للطقس والحيوانات بالمناطق التي كان يمر منها[37]، كما أن الدليل على حبه للجغرافية، هو عودته من الأندلس إلى وارجلان عن طريق سجلماسة.

ومن هذا المنطلق، يمكننا تصنيف الوارجلاني ضمن طبقة المؤرخين الرحالة الذين جعلهم حبهم للتاريخ، يسافرون ويغامرون كمؤرخين ميدانيين، وربما هذه العوامل كلها، أعطت لأبي يعقوب يوسف، مادة في كتابته للتاريخ، وبخاصة كتابه: "فتوح المغرب في تاريخ بلاد المغرب"، وهكذا نجد أن الوارجلاني كان حقيقة من رواد المعرفة ومن الموسوعيين، الذين ما انفكوا يرحلون ويغامرون، من أجل طلب ضالتهم من الحكمة والعلم، ومعرفة تاريخ الشعوب، ولقد

ذكر هو نفسه في كتابه الدليل والبرهان، أن السفر إلى البلدان والتعرف على شعوبها، يعتبر علما ومعرفة.[38]

رحلته إلى الحج: بعد العودة من بلاد السودان، والاستقرار بعض الوقت بوارجلان، يجدد أبو يعقوب سفره، وهذه المرة إلى الحج، وهذا بصحبة شيخه وصديقه أبي عمار عبد الكافي، وبالرغم من أن المصادر الاباضية كعادتها، لم تذكر تاريخ السفر، إلا أنه من الممكن، أن يكون بعد 555هـ/1160م، واختيارنا لهذا الزمن، يعتمد على أساسين اثنين: إلى معرفتنا، بأن استتباب الأمر للموحدين بإفريقية، وبالضبط بتونس والمهدية، كان في هذه السنة، ثم إلى ما ذكره الوارجلاني نفسه، في قصيدته الحجازية، التي تروي رحلته إلى الحج، عن كبر سنه، أما الرحلة، فقد تمثلت أهدافها في طلب العلم، بحواضر وعواصم المشرق، إضافة إلى الحج، كركن من أركان الدين، مع هدف آخر، نراه أحد الأهداف الرئيسة، بالنسبة لإباضية المغرب الاسلامي، وهو الالتقاء بإباضية المشرق[39].

وبالنسبة لطلب العلم، فإننا نستدل على طول الرحلة التي دامت سنتين اثنتين، أما بالنسبة لما تذكره بعض الدراسات، نقلا عن بعض المصادر الاباضية، –التي لم تذكرها– أن يوسف بن ابراهيم الوارجلاني، كان ينوي لقاء العالم المعتزلي الكبير، الزمخشري، بالمشرق، وهذا لمسائلته في بعض المسائل الكلامية[40]، إلا أن وفاة هذا الأخير، عجلت من عودته إلى وارجلان، فنحن نعتبرها هفوة تاريخية، قام بها الذين دونوا سيرة أبي يعقوب الوارجلاني، والهفوة بالنسبة لهؤلاء، تكمن في أن الزمخشري، كان متكلما معتزليا، والاباضية كما هو معلوم، تتفق مع المعتزلة في الكثير من المسائل الفقهية والعقدية والكلامية.

ولهذا ربطت المصادر الإباضية، وهي تعلق على رحلة أبي يعقوب يوسف الوارجلاني إلى الحجاز، وطلبه للعلم أثناء رحلته هذه، بين شخصيته العلمية، المعروفة بحب علم الكلام، والمنطق واللغة، وشخصية الزمحشري، المعروف بالاعتزال واللغة وتفسير القرآن الكريم[41]، ونحن نعارض هذا الربط، لأن الزمخشري توفي سنة 538هـ/1143م، بجرجانية خوارزم بعد رجوعه من مكة، ولم يمت بها كما تصرح هذه المراجع، كما أن سن الوارجلاني كما يذكر هو في قصيدته الحجازية كان كبيرا إلى درجة شكواه من الصمم وتقدم العمر، والدليل على ذلك ما يذكره هو قائلا:

وفقري ووقري وانتكاسي وشيبتي وتوديع أيام الصبى والخوافر[42]

وهكذا نجد، أن أبا يعقوب الوارجلاني، لم يكتف في طلبه للعلم، والبحث عن المعرفة في سن معينة، كما أن حبه للتاريخ والعلوم الجغرافية ومعرفة الشعوب، كانت كذلك عوامل وراء رحلته إلى الحج، والمتتبع لقصيدته الحجازية، التي تروي هذه الرحلة، سيستخلص الكثير من الأفكار التي تدل على شخصية الرجل العلمية والاجتماعية، ناهيك عن الأدبية[43]، ونحن ندمج هذه القصيدة، ضمن أدب الرحلات، وربما يعود، نظم الرحلة على شكل شعر، إلى قوة الوارجلاني الأدبية واللغوية، وحبه للشعر والأدب بصفة عامة.

وقبل أن نتطرق إلى التاريخ وكتابته، بالنسبة لأبي يعقوب الوارجلاني، لابأس أن نذكر آثاره، لأنها تفيدنا في فهم شخصيته العلمية والدينية والأدبية، وبالتالي دور وقيمة التاريخ بالنسبة له كعلم، وكوسيلة اجتماعية، يخدم به المجتمع الإباضي، ويخدم به المذهب، وهو الذي يعتبر – أي الوارجلاني–، كما تجمع الكتب الإباضية، أحد أكبر أعلامه، و بالتالي فإن الكتابة التاريخية بالنسبة له، كانت تعتبر واجبا أو فرضا دينيا، أمام المجتمع، وبخاصة في مرحلة، يستجوب فيها لم شمل الاباضية، وحماية المذهب، ولابأس أن نذكر بأن الوارجلاني قد فهم حقيقة التاريخ، ودوره الحضاري والقومي، ولهذا وظفه واتخذه وسيلة في سبيل تحقيق طموحاته وأهدافه، في خدمة مجتمعه ومذهبه.

وبالرغم من أن الوارجلاني، قد خصص كتبا منفردة في مادة التاريخ، فإن الكثير مما كتبه في هذا المجال موجود في ثنايا كتبه الأخرى الفقهية والأدبية كالقصيدة الحجازية، وحتى الكلامية، مثل كتاب الدليل والبرهان لأهل العقول، وغيرها، ويعود هذا الوجود إلى موسوعية الوارجلاني، إضافة إلى أن الحديث عن الفرق والمذاهب وأصولها، والتطرق إلى علم الرجال وسيرهم، يدخل بدوره في فن التاريخ، إذ لا مناص للعلماء والفقهاء من دراسته وتوظيفه في كتاباتهم ومناقشاتهم.

آثار أبو يعقوب الوارجلاني:

العلوم النقلية:

– تفسير القرآن، تذكر المصادر الاباضية، أنه يقع في سبعين جزء، ولعل أبلغ من ذكره هو البرادي الذي أوجز في وصفه قائلا: "...وله في تفسير القرآن كتاب عجيب، رأيت منه في بلاد أريغ سفرا كبيرا لم أر ولا رأيت قط سفرا أضخم منه ولا أكبر منه، وحذرت أنه يجاوز سبعمائة ورقة أو أقل أو أكثر، فيه تفسير الفاتحة والبقرة وآل عمران، وحذرت أنه فسر القرآن

في ثمانية أسفار مثله، فلم أرى ولا رأيت، أبغ منه، ولا أشفى للصدور في لغة وإعراب، أو حكم مبين، أو قراءة ظاهرة أو شاذة، أو ناسخ أو منسوخ، أو في جميع العلوم..."[44]

- العدل والإنصاف في أصول الفقه والاختلاف[45]، يقع في ثلاثة أجزاء، تدور كلها حول العلوم الدينية والمذهب الاباضي، ومناقشة آراء الأشاعرة.[46]

- ترتيب مسند الربيع بن حبيب، وهو المعتمد عليه عند الإباضية في علم الحديث، حيث يعتبر الوارجلاني أول من رتب المسند، إذ لم يكن مرتبا من قبل، وعن هذا الترتيب، أخذ الشماخي وغيره من الإباضية في كتبهم[47]، وحول الكتاب يذكر البرادي قائلا: "والمسند هو الكتاب المعروف بحديث الربيع، أعني غير المرتب، الذي اشتمل على ثلاثة أجزاء، وأما المرتب، فإنما رتبه أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم وزاد فيه جزءا رابعا"[48]، مع العلم أن بعض الأبحاث، تذكر أن أبو يعقوب سمى مسند الربيع بن حبيب، بعد أن رتبه، بـ: "الجامع الصحيح"[49].

- أجوبة فقهية.

*العلوم العقلية:

- الدليل والبرهان لأهل العقول، ويسمى كذلك الدليل لأهل العقول لباغي السبيل بنور الدليل لتحقيق مذهب الحق بالبرهان والصدق، جمع فيه الوارجلاني معارفه من تاريخ وأخبار وفقه وعلم الكلام وفلسفة ومنطق وحتى رياضيات[50].

- مرج البحرين، وهو كتاب في علم المنطق والفلسفة[51].

- رسائل متنوعة، جمعت في آخر كتابه "الدليل والبرهان"[52].

- مروج الذهب، وهو كتاب في الفلسفة، تذكر بعض الأبحاث أنه كتاب جد مهم إلى حد أنه ترجم إلى العديد من لغات العالم[53].

*الأدب:

- ديوان شعر، وهو ديوان شعر مفقود، به القصيدة البائية التي يرثي فيها شيخه أبو سليمان أيوب بن اسماعيل[54].

- القصيدة الحجازية، وهي التي وصف فيها رحلته إلى الحج، بها أكثر من 374 بيت[55].

*التاريخ:

- رسالة في تراجم رجال المسند، ذكره الشماخي قائلا: "له كراسة في تسمية رجال الكتاب"[56].

- سير محبوب بن الرحيل في تاريخ الإباضية بالمشرق[57]، ومحبوب بن الرحيل هو أحد تلاميذ أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة، ولقد نقل عنه أبي زكريا في كتابه السيرة وأخبار الأئمة.[58]

- فتوح المغرب في تاريخ بلاد المغرب.

من خلال هذه الآثار، نجد أن التاريخ كان له نصيبه ضمن تآليف الوارجلاني، فهو قد كتب في تاريخ الاباضية بالمشرق، الشيء الذي يجعلنا نكتشف تلك الروابط الدينية وغيرها بين إباضية المشرق والمغرب، إذ أن التأليف لم يقتصر عن مناقب مشايخ إباضية المغرب فقط، بل تعداه إلى إباضية المشرق، وكذلك رجالات المذهب الأوائل من التابعين، ومع هذا يمكننا القول أن الاباضية اهتموا بالكتابة أكثر عن سير مشايخهم ورؤساء مذهبهم، والتأليف حول مناطق الإباضية بالمغرب، وبالأخص الجنوب منه، أكثر من كتابتهم في تاريخ المغرب الاسلامي برمته، وبالأخص التاريخ السياسي لدول المغرب الاسلامي، أو تاريخ دولة من دوله خارج اطار الاباضية.

ومما جاء مذكورا في ثنايا الكتب، وهو متعلق بتاريخ المغرب الاسلامي، فنجده يدخل ضمن الخلافات العقدية والمذهبية، وما كان بين الفرق من الاختلافات، وقد كتب يوسف بن ابراهيم الوارجلاني الكثير من ذلك في كتبه الكلامية والفلسفية، بالإضافة إلى ذلك، نجد أن كتابه فتوح المغرب في تاريخ بلاد المغرب يعتبر من أحسن التآليف التي كتبت في تاريخ مناطق الجنوب بالمغرب الأوسط.

وتذكر المراجع التاريخية التي بين أيدينا أن الكتاب كان موجودا في إحدى المكتبات أو الخزائن الألمانية[59]، وهو الآن مفقود، وبالرغم من أن فحوى الكتاب مجهول، فيمكننا أن نطرح العديد من الأسئلة لنستشف ما بداخله، وهذا من خلال العنوان الذي يذكر فيه المغرب، فهل الكتاب يدور حول تاريخ الاباضية بالمغرب، وذكر مناقب مشايخها؟ أم أنه عام يشمل تاريخ المغرب الاسلامي ككل؟ ثم تاريخ أي مجال تناوله الكتاب؟ فهل شمل التاريخ السياسي، لأنه ذكر فتوح المغرب، أم أنه تناول العديد من المجالات، بحكم أن الوارجلاني كان موسوعيا؟.

ولعل الذي يجعلنا نلح في هذه الأسئلة أن الكتاب لم يحمل مصطلحات السير أو المشايخ، أو حتى مصطلح الطبقات التي عودنا عليها الإباضية في عناوين كتبهم، بل في حقيقته يشبه ولحد كبير عناوين الأندلسيين، وبخاصة أنه جاء بصيغة السجع، فهو يشبه على سبيل المثال، في عنوانه، كتاب المغرب في حلي المغرب لابن سعيد المغربي، أو كتب ابن حيان من مثل المقتبس في رجال الأندلس، وغيرها من المصادر التاريخية الأندلسية، مما يدل على تأثر الوارجلاني بالبيئة العلمية بالأندلس.

الحقيقة أننا لا نستطيع الإجابة، لأن المستشرقين يذكرون أن الكتاب يحمل عنوانا آخر، وهو: التاريخ الكبير لوارجلان وسدراتة ووادي ريغ،[60] ومن خلال هذا العنوان يمكننا من جديد طرح أسئلة أخرى، وهي: هل العنوان يعكس محتوى الكتاب، أي أنه يؤرخ فقط للمناطق الجنوبية للمغرب الأوسط، وهي المذكورة في الكتاب، أي وارجلان وسدراتة ووادي ريغ؟ أم يذكر بموازاة ذلك مناطق أخرى؟ وعندما نعلم أن هذه المناطق معروفة عبر تاريخها، كونها اباضية، فهل يعني هذا أن الكتاب ما هو إلا تعريف وتأريخ للإباضية بالمنطقة[61].

وبالتالي هل هو ذكر لسير المشايخ، مثل مؤلفات أبي زكريا يحي بن أبي بكر من قبل، ومن بعده مثل الدرجيني والشماخي؟ على كل، تبقى هذه الأسئلة مطروحة ما دام الكتاب مفقودا، ومع ذلك فإن ملاحظة جد مهمة نستخلصها من صاحب غصن البان، وهي أن الوارجلاني قد جمع في كتابه هذا كل شاردة وواردة[62]، وهو الأمر الذي نستشف من خلاله معنى عنوان الكتاب الذي ذكره المستشرقون باسم التاريخ الكبير.

بالرغم من الأسئلة التي طرحناها، إلا أن أسئلة عديدة أخرى تبقى تراود الباحث حول الكتابات التاريخية عند الوارجلاني، والاباضية بصفة عامة، ومنها: هل كانت كتابات الوارجلاني تقليدا للكتابة التاريخية عند الاباضية، وهذا بالرغم من طلبه للعلم بالأندلس المعروفة بكثرة مؤرخيها؟ بالمعنى هل تناولت فقط سير مشايخ الاباضية ومناقبهم؟ أم أنها خرجت عن التقليد والمألوف؟ وإذا ما كانت الكتابات التاريخية عند الاباضية بهذا الشكل، تدور فقط حول الاباضية دون سواهم؟ فهل نستطيع تصور المجتمع الاباضي بالمنعزل، أم أنه يمثل ويعكس معنى وصورة الفترة أو المرحلة التي كان يعيشها، وهي مرحلة الكتمان التي كان لها خصوصياتها ومميزاتها المذكورة آنفا.

الخاتمة: من خلال التعريف بأبي يعقوب يوسف بن ابراهيم الوارجلاني، نجد أن الاباضية، قد قاموا، بكتابة سير علمائهم ومشايخهم، وبكتابة تاريخ مدنهم، وبالأخص مدن المغرب الأوسط وهذا ما يدفعنا إلى القول أن كتب تاريخ الاباضية، تعتبر من الكتب الرئيسة، وهذا بدون مبالغة، التي احتفظت لنا بتاريخ مدن الجنوب وبالأخص الشرقي للمغرب الأوسط بما فيها المدن المندثرة كسدراتة وغيرها.

كما أن التعريف بأبي يعقوب الوارجلاني كنموذج للمؤرخ بالمغرب الأوسط، كشف لنا عن كيفية الكتابة عند هؤلاء المؤرخين، إذ كان الكثير منهم من الموسوعيين، كما أن كتابتهم كان لها أهداف محددة، وبالنسبة للإباضية، فقد كانت من أجل الاحتفاظ بنقاوة المذهب، إضافة إلى تقديم سير مشايخ المذهب من أجل الاقتداء بهم، مع ملاحظة هامة، وهي أن الكتب الفقهية والكلامية لم تكن تخلو هي الأخرى من صفحات تاريخية.

نجد مع ما ذكرنا، أن الأباضية لم يكتبوا- من خلال المصادر التي بيننا- حول تاريخ المغرب الإسلامي أو المغرب الأوسط في الميدان السياسي، أي حول الدول المتعاقبة عليه، بل اكتفت بذكر تاريخ المدن الاباضية وتاريخ رجالاتها، ومن الممكن أن يكون ذلك من أجل تحقيق الأهداف التي ذكرناها آنفا، إضافة إلى طبيعة المرحلة التي عاشتها.

كما أن المصادر التاريخية الاباضية، فيما بعد سقوط تيهرت، قد عكست حقيقة الفكر الإباضي، السياسي منه والديني، ولقد مثلت هذا الفكر مدينة وارجلان كأكبر حاضرة من حواضر الإباضية عبر التاريخ، معطية بذلك صورة حقيقية لمجتمعها في مرحلة من المراحل، التي عاشتها الاباضية عبر تاريخها بالمغرب الأوسط، ومعطية صورة أخرى عن مؤرخيها الذين وظفوا التاريخ من أجل المذهب والمحافظة على مبادئه، كما وظفوه من أجل بناء مجتمع يبقى الخلف فيه محافظين على ميراث السلف مما خلفوه من آثار وقيم.

الهوامش:

1-يراجع كتاب تادوس ليفيتسكي، المؤرخون الاباضيون في افريقيا الشمالية، ترجمة: ماهر جرار وريما جرار،الغرب الاسلامي، ط1، 2000م.

2- يعتبر علماء هذه الفترة، ومن الذين عاصروا ابو يعقوب الوارجلاني، أكبر علماء الإباضية، لأنهم أثروا في مسيرة المذهب الأباضي، وتأثيرهم لا يزال إلى غاية اليوم، ومن بين هؤلاء أبو عمار عبد الكافي التناوتي(ت 570هـ)، و من بين الذين كتبوا في التاريخ ، على سبيل المثال لا الحصر: أبو عمرو عثمان بن خليفة المارغني السوفي(ت 530هـ)، حول أبي عمار عبد الكافي، يراجع: الدرجيني، ج2، ص306، الخروصي سالم، أبو عمار عبد الكافي، حياته وأفكاره، ط1، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عمان، 1423هـ/ 2003م، حول بن خليفة المارغني السوفي، يراجع الدرجيني، ج2، ص303، وتادوس ليفيتسكي، ص69

3-الشماخي، سير المشايخ، طبعة حجرية، ص337.

4- أعزام ابراهيم صالح، غصن البان في تاريخ وارجلان، نسخة من المخطوط موجودة بمكتبة سليمان بومعقل، بمدينة ورقلة، ص177.

5- تالية سعدو، الحركة الفكرية بالدولة الرستمية واسهام المرأة الاباضية فيها، مجلة عصور جديدة، مخبر البحث التاريخي- تاريخ الجزائر- العدد1، 1432هـ/2010م، ص63.

6- "درجين، هي آخر البلاد الجريدية، مدينة قديمة، بقرب نفطة، وهي كبيرة " الحميري، روض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، بيروت، ص236.
7- بوعصبانة عمر لقمان، معالم الحضارة الاسلامية بوارجلان- من نهاية الدولة الرستمية إلى زوال سدراتة- ط1، ورقلة، الجزائر، 1429/ 2008، ص61.
8 – الدرجيني، كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، تح: ابراهيم محمد طلاي، ط2، ص315.
9- الشماخي، مصدر سابق، ص444، تعود أسباب عدم موالاة الاباضية إلى أية دولة، بسبب الفكر السياسي الاباضي، الذي يعتمد في تاريخه على أربعة مراحل وهي: الظهور، الدفاع، الشراء، ،أخيرا الكتمان، فمرحلة ما بعد سقوط تيهرت، تسمى عند الاباضية، بمرحلة الكتمان، بوعصبانة، المرجع السابق، ص61، عدون جهلان، الفكر السياسي عند الاباضية، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، ط3، سلطنة عمان، 1431هـ/2010م، ص 194/207.
10- عدون جهلان، المرجع نفسه، ص196/197.
11 – الدرجيني، ج2، نفسه ، ص326.
12 –الدرجيني، نفسه، الصفحة نفسها.
13 – ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ط2، المطبعة الملكية، الدار البيضاء، المغرب، ص332.
14 – عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، لبنان، 2007م، ص325
15- أبو عمار عبد الكافي، سير أبي عمار عبد الكافي، تح: مسعود مزهودي، مكتبة الضامري، سلطنة عمان،1416/ 1996م، ص18.
16- عبد الله العروي، المرجع نفسه ص320
17- الدرجيني، مصدر سابق، ص313، ينظر كذلك الشماخي، مرجع سابق، ص443 .
18- عدون جهلان، المرجع السابق، ص 195 .
19- الدرجيني، المصدر السابقن ص315 .
20- حول سدراتة، يراجع مسعود مزهودي، الإباضية في المغرب الأوسط، جمعية تراث القرارة، الجزائر، 1417هـ/2010م صص27/38 .
21- المراجع، أعوشت، أبو يعقوب الورجلاني والمدارس الكلامية الاسلامية، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، د، ن، ص39ن بوعصبانة، المرجع السابق، ص،61 .
22- الدرجيني، المصدر السابق، 315 .
23- حول حياة أبي عمار عبد الكافي، يراجع، الدرجيني، ص306 .
24- أعوشت، المرجع السابق ص39 .
25- الوارجلاني، رحلة الوارجلاني، تح : يحي بهيون، ط1، غرداية، الجزائر 2006م ص17.
26- تادوس ليفيتسكي، المرجع السابق، ص129.
27- بوعصبانه، مرجع سابق، الصفحة نفسها.
28- أعوشت، نفسه، ص39
29- تادوس ليفيتسكي، ص129.
30 – يراجع: الدرجيني، وكتابه: كتاب طبقات المشايخ بالمغرب.
31- حول هذا، يراجع كلا من المرجعين، أعوشت، مرجع سابق، بوعصبانة، مرجع سابق.
32- الخروصي، مرجع سابق، ص86
33- أعوشت، مرجع سابق، ص75.
34- رحلة الوارجلاني، مصدر سابق، ص19.
35-رحلة الوارجلاني، المصدر نفسه، ص19.
36- الخروصي، مرجع سابق، ص86.
37- بهيون، المرجع السابق، ص41.
38- الذهبي محمد حسين، التفسير والمفسرون، مكتبة وهبة، ط8، القاهرة، مصر، 1423هـ/2004م، ج 1، ص305.
39- بهيونن رحلة الورجلانين المرجع نفسه ص41.
40- بالنسبة للقصيدة الحجازية، ينظر رحلة الوارجلاني، ص37/88.
41- الشماخي، المصدر السابق، ج2، ص444، يتضمن مؤلف الربيع بن حبيب البصري، الأحاديث المنقولة عن ابن عباس وباقي الصحابة بواسطة أبي عبيدة وشيخه جابر بن زيد، نشر الكتاب بفضل الشيخ محمد اطفيش الذي استعان بترتيب الوارجلاني، يراجع تادوس ليفيتسكي، دراسة شمال إفريقية، ترجمة أحمد 2008م، صص33/34، والكتاب طبع بالجزائر في1326هـ/1908م، ينظر عدون جهلان، المرجع السابق ص135، يراجع كذلك البرادي، المصدر السابق، صص220/221، تذكر بعض المراجع، بدون ذكر مصادر معلوماتها، إن جزء واحد من هذا التفسير، يوجد في إحدى المكتبات الألمانية، أعوشت المرجع السابق،ص47.
42- البرادي، مصدر سابق، ص220.
43- حققه عمرو خليفة نامي، ينظر بهيون، مرجع سابق، ص13.
44- البرادي، مصدر سابق، ص220، تادوس ليفيتسكي، دراسات شمال إفريقيا، صص 23/24.
45- البرادي، مصدر سابق، ص172.
46- أعوشت، المرجع السابق،ص47.
47- البرادي، مصدر سابق، ص220، قام عمار طالبي، تحقق الكتاب، تحت عنوان: آراء الخوارج الكلامية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1398هـ/1978م، أما طبع الكتاب لأول مرة فقد كان بمصر سنة 1306هـ/1888م، تادوس ليفيتسكي، المؤرخون الاباضيون، ص130.
48- أعوشت، مرجع سابق، ص47، وقد شرحه عبد العزيز الثميني، في كتاب تعاظم الموجين في شرح مرج البحرين، يراجع بهون، مرجع سابق، ص13.

49- بهون، ص14.

50- تذكر بعض الأبحاث أنه عثر على قسم منها، بمدينة غرداية، بهون، نفسه، ص13.

51- أعوشت، مرجع سابق، ص14.

52- تراجع القصيدة في رحلة الوارجلاني، مصدر سابق.

53- الشماخي، ج2، 344.

54- تذكر الأبحاث أنه مفقود، بهون، ص 14.

55- الخروصي، مرجع سابق، ص86.

56- يراجع كلا من بوعصبانة، أعوشت.

57- تادوس ليفيتسكي، مرجع سابق، ص130.

58- حتى بالنسبة للجماعة التي تكونت بالبصرة، للدعوة الاباضية، كانت من مناطق الجنوب للمغرب الاسلامي، فقد كان منهم، أبو درار اسماعيل بن درار الغدامسي، وأبو درار القبلي النفزاوي من جنوب تونس، وعاصم السدراتي من سدراته، قرب وارجلان، وعبد الرحمن من القيروان، باستثناء أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري من اليمن، عدون جهلان، مرجع سابق، ص54.

59- أعوشت، مرجع سابق، ص 48

60- تادوس لايفيتسكي، مرجع سابق، ص130.

61- يذكر الشيخ أبو اليقظان ابراهيم أن حسن حسني عبد الوهاب ذكر أن كتاب فتوح المغرب كان قد رآه في تركة مونتيسكيو، ولكنه لم يقتنيه لقلة يده، فقد اختار فقط كتاب ابن الصغير المالكي في أئمة بني رستم، وأن كتاب فتوح المغرب يوجد في ألمانيا، عن أعوشت، ص48، مع العلم أن أبا اليقظان ابراهيم له رسالة غير منشورة- مخطوطة- في ترجمة أبي يعقوب الوارجلاني، يراجع أحمد محمد فرصوص، الشيخ أبو اليقظان ابراهيم كما عرفته، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، د-ت.ص37.

62- أعزام، ص 186، بوعصبانة، مرجع سابق، ص140، يراجع تادوس ليفيتسكي، ورأيه حول هذا مع ملاحظة هامة، وهو أن تادوس ليفيتسكي، في كتابه حول المؤرخين الاباضيين ينفي وجود هذا الكتاب، إلا من خلال كما يذكر خبر حصل عليه جوزيف شاخت في مزاب في سنة 1952م/1953م، ويضيف قائلا :"ويبدو لنا مشكوكا فيه"، ص130.